



خيول الشوق

رواية



محمد جربوعة

تقديم الدكتور عائض القرني



سلسلة اليقين الروائية

فكرة وإشراف: سعيد بن صالح الغامدي



خيول الشوق

«روايــة»

محمد جربوعة

تقديم: د. عائض القرني

مؤسسة اليقين الإسلامية للإنتاج الإعلامي

خيول الشوق

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

جربوعة، محمد سعيد

خيول الشوق./ محمد سعيد جربوعة.-ط٢.- الرياض، ١٤٢٧هـ

١٠٠ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٦-٢٨-٠٥٤-٩٩٦٠

١- القصص العربية - الجزائر أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٦٨ ٢٩٣٨/ ١٤٢٧

ردمك: ٦-٢٨-٠٥٤-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٩٣٨/١٤٢٧

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

توزيع



الرياض. العليا. تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم د. عائض القرني

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه، وبعد:

اطلعتُ على الروايات التي قدمها لي الأخ الأستاذ سعيد ابن صالح الغامدي، رئيس المركز العالمي للاستشارات الإستراتيجية، للكاتب الإسلامي الأستاذ محمد جريوعة فأسرني وهجها الذي يكاد يذهب بالأبصار... وما أدري هل أعجب من السحر المذاب والشهد العجاب في تفاصيل جُمَلِها وفي نسج حللها، أم أعجب من الغيث المدرار والسيل الموار في متون معانيها وجلالة مبانيها...!؟ حينها آمنت أن الأمة لا زالت منجبةً وَلودا، تقدّم للبشرية روادا في الدراية وأساتذة في الرواية.

إن الكلمة الجميلة والرواية الآسرة عمل إبداعي أجمل من وشْيِ برود الحرير، وأعذب من حباب الماء النّمير، وإن الحرف الباسم والجملة الهائمة أمتع من أنفاس فجر ربيعي في خميلة ندية، وألذّ من سرّ محبٍّ من فمٍ حلوٍ إلى أُذن مشتاقة...

ولما قرأتُ هذه الروايات طاف بي خيال الذكرى إلى

مراقي الصعود في سلّم المجد لهذه الأمة، وناجاني نداء الهمّة، يوحي إلي بحِكَم دبّجتْها يد كريمة، وقلم بارع، وقلب ذكي، فالتقى ماء الصدق مع تربة النُّبل، في أرض الطهر، فإذا شجرة الإتقان وارفة بظلال الإقناع وأوراق الإبداع وأغصان الإشعاع...

فشكراً لمن كتب... وهنيئاً لمن قرأ... وطوبى لمن وعى...



نفض عن جبينه حبات التراب التي التصقت به أثناء السجود، دون أن يكف عن تمرير رأس إبهامه على بواطن أصابعه مسبحاً، ورنا ببصره إلى الأفق..

كانت الآفاق المتكسرة فوق الجبال البعيدة تحرك فيه أشياء وأشياء... وهبت نسمة هواء منعشة، فأغمض عينيه وألقى بنفسه إليها وإلى أفكاره... ومرّت في مخيلته صور سريعة، باهتة، ومتداخلة، اجتهد في تجاهلها، لكنه لم يفلح...

صورة عيني أمه، بكل حنانها، وأحزانها.. هما هما.. كما كان تأملها وهو يودعها منذ عشر سنوات... حينما اغرورقتا وقالتا كل شيء... صورة جبين أبيه... بتجعداته، وأسرار نقوش العقود... وهذه يد ابنه تمتد نحوه، ... با... با كان عمره عامان... وافتر الثغر الصغير الجميل عن ابتسامة محفورة إلى اليوم في ضلوعه.. أما ابنته الكبرى آمنة فكانت تمسك بذيل ثوب أمها تنظر إليه نظرات ابنة السبع سنوات.. بريئة كانت، وكان كلما ابتعد خطوة ضغطت هي على ثوب أمها أكثر...

كانت المرة الأولى التي يدرك فيها أن زوجته تحفظ الشّعر... وتبذره فوق الجراح أيضاً... قالت وهي تودعه:

هل ترانا نلتقي أم أنها كانت

اللقيا على أرض السراب

ثـــم ولَّـــت وتلاشـــى ظلـــها

واستحالت ذكريات للعذاب؟!!

ومسح أبوه عن عينيه شيئاً ما... مترقرقاً كالماء... مالحاً كالبحر... حارّاً كقلب ذائب...

كانت الأفكار قاهرة لدرجة أنه تلاشى فيها رغم مكابرته، ولم ينتبه إلا على يد صاحبه أبي الوليد وهي تربت على كتفه: أبا مصعب... أبا مصعب..

كان كمن استله من عالم آخر استلالاً ترك فيه نصف جسده، نصف قلبه، نصف روحه، واستدار، فإذا الذين أمّهم في صلاة العصر قد انصرفوا إلى حاجاتهم.

وأدرك أبو الوليد ما الذي يمور في صدر صاحبه، فجلس إليه وتأمل وجهه ملياً، ثم نزل بعينيه إلى الأرض، وقال وهو يعبث بعشبة خضراء، يمسّحها برفق: عند الله استودعناهم... ولله بعنا...

فرد عليه: نعم البيع يا أخي، لكنها المضغة التي بين يدي الرحمن، يتحرك بها الشوق بين الفينة والفينة فتسافر نحوهم تعانق أطيافهم.. هو ضعف البشر يا أبا الوليد...

كانت الشمس تتحدر نحو مغيبها، وكان المساء لطيفاً، تذوب فيه النفس، وهي تسافر عبر الأفق الرحب...

كان الرجلان يجلسان على ذكرياتهما... وكان الله يراهما ويسمع ما يقولان...

● ● ●

نزل الليل متئداً، كشيخ على عكاز... واختلطت حبيبات الظلام بحبات النور، وتزايدت حتى احلولكت الفجاج... كانت عيونهم صقوراً جارحة، ووجوههم تتقلب في السماء تترقب ما هو كائن منذ ليال... القصف... النار... والتقطت الآذان أصواتاً بعيدة تقترب...

لقد جاؤوا..

قالها أبو تراب وهو يتحسس سلاحه..

وتحرك لسان أحدهم بنهر من نور بدد الظلام:

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾...

كان الصوت شجياً.. وكانوا إخوة نأت ديارهم، وجمعهم طريق الجنة... من كل فج جاؤوا مستجيبين لنداء الحق، : يا خيل الله اركبي أرخوا الأعنة فطارت بهم السُّرج إلى هنا...

اقترب الصوت أكثر... تحركت الألسنة بالذكر، وارتفعت العيون تراقب الطائرات.. صوت خطى تقترب مسرعة، إنه القائد عبد الرحمن، بطلعته التي أرهبت الروس أعواماً، وصوته المرعد:

هل كل شيء على ما يرام؟..

وجاء الجواب من الجميع: بإذن الله..

كانت بطارية الصواريخ المضادة للطائرات تعيش آخر لحظات صمتها، وهدوئها.. وكان أبو مصعب يقف قريباً منها يفكر في واقع هذه الأمة التي تصحو وتنام على أمطار النار والدمار في كل مكان...

كان يسلي نفسه بكونه وإخوته معه، يمتلكون سلاحاً يواجهون به أعداءهم، وكان ذلك ما ذكّره بأطفال صغار في فلسطين يقاتلون من دون سلاح، ويواجهون النار بالصدور العارية..

المأساة في كل مكان - قال لنفسه - في فلسطين، والشيشان، والبوسنة، وكشمير والفيليبين، وغيرها... ومن عهد بلال ﷺ وظهور المسلمين تُحرق... وتنهّد وهو يقول: إنها المأساة..

اقتربت الطائرات وحبست الأنفاس، أما الأعين فلم تكن تخطئ تلك الكتل الحديدية التي تملأ هدوء الليل ضجيجاً مفزعاً، وكانت تلك ليلة من ليال كثيرة تقضيها عيون الصقور مفتوحة إلى الفجر.



كانت الأضواء الحمراء تتراقص على مدخل الكازينو... وتوقفت السيارة السوداء الفخمة، ونزلوا.. كان الجنرال بيكونين تشيخوف يعتمر قبعة صوفية، ويلبس معطفاً أسود، أو قريباً من السواد... أما حذاؤه فكان يلمع، وهو يدخل دون أن يرد على تحية بوابي الكازينو...

وما هي إلا لحظات حتى دخل وراءه شابان، قلَبَ أحدهما قبة معطفه على رقبته اتقاء للبرد، أما الآخر، وكان قصيراً، فكان يبدو أنيقاً بطقمه الرسمي..

كانت الأضواء الحمراء المتراقصة تعبيراً ناجحاً عن الجو، جوِّ الكازينو.. انغمس الجنرال في اللعب محتسياً كأسه، واحتوشته الخسائر حتى رهن ساعته الذهبية، ومسّاك ربطة عنقه، وأزرار قميصه الفاخرة، وانتهى بعد ساعات إلى الإفلاس...

قال وهو يضرب الطاولة بقبضته فتقرقع الكؤوس فوقها: حظ سيئ.

كان الشابان يراقبانه من بعيد، هل هما من حرسه؟

أم من رجال المخابرات الروسية؟!!

وهمَّ بالانصراف، وعند الباب، اقترب منه أحدهم وقال له، وهو يحاول أن لا يلفت انتباه الآخرين:

يبدو أنك في حاجة إلى بعض المال يا سيدي...؟

والتفت الجنرال وهو يقول: هذا أنت؟!!

فرد الشاب: نعم، دائماً أكون معك في لحظة الغرق والحاجة، وأعرض قارب نجدتي.. ما رأيك في عشرين ألف دولار؟!!

وبدا أن الجنرال لا يهتم بالعرض كثيراً، فهزَّ رأسه، وابتسم، وواصل مشيه نحو سيارته.

أما الشاب فواصل قوله: الأمر ليس صدقة... وهناك مقابل، أظن أن ذلك يطمئنك..

كان الرجلان قد وصلا إلى السيارة، وقد فتح السائق بابها الخلفي ووقف شبه منحن منتظراً ركوب الجنرال.

هبت نسمة قارسة، فارتجف الشاب صاحب المعطف، وخبأ رقبته في قبة معطفه أكثر.. وقال وهو يزم فمه ويقطب جبينه: يبدو أن الحظ لم يحالفك هذه الليلة مرتين يا سيدي.. لا بأس سأنصرف ومشى خطوات.. وتأمله الجنرال من الخلف جيداً ثم قال له:

لا بأس، ما هو المطلوب؟..

كان الشاب كأنه يدرك حين انصرف أن الجنرال سيستوقفه.. وتراجع إليه وهو يقول:

صفقة...

كان لابد من مكان للتفاوض، ولذلك فقد صرف الجنرال سائقه إلى داخل الكازينو، بينما ركب هو والشابان السيارة... وبحركة سريعة توجس منها الجنرال ضغط أحد

الشابين زراً جانبياً في السيارة طلباً للضوء، ثم أخرج من جيبه ورقة... وعرضها على الجنرال وهو يقول: هل تذكر هذه يا سيدي الجنرال..؟ إنها بخط يدك..

وألقى الجنرال نظرة سريعة على الورقة، وأدرك ما هي، وسقط في يده..

– .. إنها صفقة السلاح الذي بعته للقائد الشيشاني منذ عام، وحينها ادعيت أمام القيادة الروسية انك خسرته في معركة طاحنة.. إنها إدانة أليس كذلك؟..

– الآن يمكنك أن تستل مسدسك وتقتل واحداً منا.. وإن كنت أسرع فقد تقتلنا نحن الاثنين.. لكن الذين أرسلونا يمتلكون أصل الوثيقة، وسينشرونها في صحيفة (البرافدا) يوم السبت القادم... هذا كل ما عندنا..

قال الشاب ذلك وهمّ بالنزول من السيارة مع صاحبه غير أن الجنرال استوقفهما في شبه استجداء: مهلاً... لكننا لم نكمل حديثنا.. وفهم الشابان أن الفريسة قد وقعت في الكمين، وعادا إلى الداخل:

– عشرون ألف دولار.. قال أحدهما.

وقال الآخر: مع عدم نشر الوثيقة طبعاً

قال الجنرال: والمقابل؟

نحن بحاجة إلى عملية كبيرة نكسر بها التعتيم الإعلامي الذي تمارسه حكومتكم على عملياتنا..

تريدون سلاحاً إذن.. قال الجنرال..

فقال الشاب:

سلاحاً وجنوداً.. قرابة خمسين، فإن كانوا سبعين فذلك كرم منك لن ننساه، وسندفع.. وما زاد على ذلك فبكل رأس ألف دولار... ومعك الوقت وآلتك الحاسبة، فعُدَّ ثروتك، وسنلتقي غداً لإعطائك التفاصيل..

قال الجنرال بنبرة اندهاش:

مستحيل.. كيف أرسل سبعين أو مائة جندي إلى كمين مصيدة ليلقوا حتفهم هناك؟.. هذه خيانة عظمى!!!

فقال الشاب:

إذن هناك غيرك سيفعلها.. ولا تنس يوم السبت أن تشتري صحيفة (البرافدا).

وقام الشاب بحركة كأنه يريد النزول، فأمسك الجنرال بمنكبه وهو يقول:

متى؟.. وأين؟

فرد عليه الشابان بصوت موحد:

غداً نلتقي ونتحدث.. وانصرفا ليبتلعهما وحش الظلام عند نهاية الشارع.

* * *

جلس الشيخ عبد العزيز تحيطه هالة الوقار، ويزيّنه الصمت الرائع، وجلس المجاهدون حوله، كانوا ثلاثين، ينقصون أو يزيدون قليلاً، وافتتح كما هي العادة موعظته بـ- إن الحمد لله، نحمده.. ثم قرأ خطبة الحاجة، ودخل في الموضوع، كان درساً في العقيدة، في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ... ﴾ وراح بأسلوبه الجميل يفسر معنى العرش، ويعطي مأثور العلماء في الاستواء مثبتاً أن الله تعالى في السماء، وأن الاعتقاد الصحيح في إثبات صفات الله وأسمائه سبحانه، دون تعطيل ولا تأويل ولا تشبيه، ثم قال: من أجل هذا الذي في السماء، الذي استوى على العرش، تطير بنا أشواق الجهاد والجنة من قفر إلى قفر. لقد قاتل الكثير منكم في أفغانستان ودحروا الروس ثم طاروا شُعثاً غبرا إلى البوسنة والهرسك، ثم هم اليوم في الشيشان، ومن ثغر إلى ثغر، ليس لهم سوى الشوق إلى وجه الله الذي في السماء، الذي استوى على عرشه...

كانت الرؤوس كأن عليها الطير.. وكانت الكلمات المنسابة تزيد المجاهدين ثباتاً.. وأشار الشيخ عبد العزيز إلى شيخ مسنّ، ترك الدار ودفء الأسرة، وجاء يقطع الوهاد والنجود، يتوكأ على شيبته، يريد وجه الله الذي استوى على العرش.. وسأله الشيخ عبد العزيز:

يا شيخ مروان، قل للعالم كله لماذا جئت؟

واقترب شاب يحمل آلة تصوير فيديو من الشيخ مروان ووجه العدسة نحوه.. ورفع صاحب الشيبة وجهه السبعيني بتغضناته، وتجعداته، وآثار العقود.. وترقرقت في عينيه دمعتان، وقال:

أنا رجل أميّ، عشت فقيراً، لكن إمام المسجد هزني مرّة وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ...﴾ وقال: خفافاً بالشباب، ثقالاً بالشيخوخة... وذكر قصة أبي أيوب الأنصاري، فقررت أن ألتحق بالمجاهدين.. أعيش في ظلهم.. أدعو لهم قبل انتقالهم إلى المعارك، وأحتضنهم حين يعودون، وأعوضهم شيئاً قليلاً من حنان آبائهم.. أرتجي بذلك وجه الله، فلعله يرحم هذه الشيبة التي خرجت لوجهه الكريم تقطع الفجاج بمرضها وكبرها وعجزها...

والتفت المصور بعدسته إلى الحاضرين فإذا البكاء قد ألقى عليهم رداءه، والتقطت آلة التصوير صورة أخرى من صور الرحلات إلى الله ليشاهدها الكثيرون بعد هذا في مشارق الأرض ومغاربها...

وتحركت شفاه الشيخ عبد العزيز فقال:

لطالما ألقينا الدروس قبل أن نخرج للجهاد عن الله الذي في السماء، لكننا كنا مرتبطين بآلهة الأرض أكثر، نخشاها ونرجوها، فآه يا ابن المبارك وأنت تقول:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا

لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب وجهه بدموعه

فنحورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يُتعب خيله في باطل

فخيولنا يوم الكريهة تتعب

فيا للخيول المظلومة في مضامير السباق في الأندية.. يا للخيول المعطلة عن مضمارها الحق... يا للفرسان الذين يطيرون على السرج طلباً للكؤوس الذهبية، ليتهم فقط جربوا أن يطيروا لحظة واحدة لله الذي في السماء.. والخيل إن لم تكن:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ فما هي..؟ ما الخيل إن لم تكن ذلك؟!!

وانتهت الموعظة... وتحلق بعضهم حول الشيخ مروان، محتفين به، مباركين سعيه، وبعد ساعة انشغل كل بدأبه، وجلس أبو مصعب محتضناً سلاحه يمسحه، وأقبل عليه أزرق اليمامة من بعيد وهو يقول:

هل هناك عاقل يترك القصر المنيف، وسيارة الشبح، وأولاده، وصيف لندن، وما أدراك ما صيف لندن، ويأتي إلى هذه البقعة لينام على القش في العراء ثم يصبح ليمسح قطعة حديد؟!!

وانفجر أبو مصعب ضاحكاً، دون أن يرفع رأسه نحوه...

وكان أزرق اليمامة شاباً مرحاً، صاحب نكتة، يسرّي عن المجاهدين أحزانهم بذلك، وكان أعشى، لا يكاد يفرق في الليل بين الدبّابة والشجرة، لذلك كان على أحد إخوانه أن يمسك بيده ويقوده كلما جاء المساء، وأظلمت الدنيا في وجهه، كما كان يقول...

واستمع مرة إلى الشيخ عبد العزيز في شهر رمضان وهو يتحدث عن قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ...﴾ فسأله: في أي ساعة ذلك يا شيخ فقال الشيخ عبدالعزيز: في الفجر.

فغمز أزرق اليمامة أحد الجالسين إلى جانبه وهو يقول له:

الفجر؟ أنا لا أفرق الفيل الأبيض من الفيل الأسود، فهل أفرق الخيطين..؟!!

واقترب أزرق اليمامة من أبي مصعب، وأقبل أبوالوليد فسأله:

ما الذي خرج بك يا أزرق؟

فرد عليه: أجاهد معكم.. فقال أبو الوليد:

إنك تجاهد فينا.. ولو أعفيتنا لكان لك الأجر الجزيل.. إنك في صف الرّوس يا رجل... هل نحن هنا لنقاتل أم لنقود العميان؟

ونطق أحدهم وكان يجلس غير بعيد:

لقد أعفاه الله حين قال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ لكنه لم

يُغفِ نفسه، وجاء فقط ليدهس أرجلنا برجليه حين نقوده في الليل، تصور يا رجل ما يقوده ليلة أحدنا إلا وتصبح رجله التي تليه حين يقوده زرقاء متورمة من الأذى.. فأي جهاد كهذا..؟!

ويبدو أن أزرق اليمامة لم يستطع أن يتحمل أكثر فقال:

ألم تعلموا أنكم تُنصرون بضعفائكم؟!! ثم إني كنت أعيش في بلادي، لا أجد من يقودني في الليل، فقلت في نفسي ليس أمامك إلا المجاهدون.. وسأستدل عليهم ببعض الأدلة في إعانة الضعفاء وقيادة العميان وأحقق مرادي...

قال أبو الوليد إذن أنت تستغل عقولنا؟!!

فرد عليه:

عقولكم؟!! لو كانت لكم عقول فعلاً لما تركتم صيف لندن لتبيتوا تحت الجليد...

ومرَّ الشيخ عبد العزيز، وحانت من الأزرق نظرة فرآه، وعلم أنه قد سمعه، فغير معنى الكلام، وهو يقول: وفي الجليد خير وبركة لمن صبر... فاصبروا يا إخوتي.. وكتم الجميع بركان ضحكاتهم... وابتسم الشيخ عبد العزيز ماراً.



كانت الأنباء تتحدث عن عناصر الموساد الذين قدموا إلى روسيا وزاروا الشيشان، وقالت الصحف: إنهم خبراء عسكريون جاؤوا يعرضون على روسيا ترميم منشآتها النووية المتآكلة خوفاً من أن يحدث لها ما حدث لمفاعل تشيرنوبل كما أن في جدول زيارتهم أيضاً حديث مع الروس عن محطة رصد الصواريخ الموجودة في ميشيلينكا التي تغطي قطاعاً يشمل كوريا الشمالية، وعن قاعدة الرادار في لياكي في أذربيجان.. وعن ملف إسلاميي جيورجيا.. فلماذا تعرض إسرائيل كل خدماتها تلك؟ وما المقابل؟!!

كان السؤال كبيراً بحاجة إلى جواب مطلع.. لا تكهن خبير أو محلل، وكان القائد أبو عبد الرحمن يخلو إلى أركان جماعته، يحسسهم بخطورة الزيارة ويدعوهم إلى التفكير في ما يجب فعله...

كانت الغرفة نصف مضاءة... على أحد جدرانها خريطة كبيرة، وعلى الطاولة المستطيلة خريطة عمليات يغلب عليها اللون الأصفر..

كان القائد أبو عبد الرحمن متوتراً، يمسك لحيته بيده، يفركها، ويعود يمسّحها من أعلى إلى أسفل، ولم يكن الوحيد المتوتر فيما يبدو.. فقد كان الموضوع حساساً يتطلب معلومة دقيقة، ورأياً صائباً بعد ذلك..

وكان أبو سعيد من المستشارين البارزين لقيادة الجهاد،

وقد كان رأيه أن يرسل اثنان من المجاهدين إلى روسيا لاستجلاء الخبر من مصدره... ولعل ذلك الرأي كان الأقرب إلى ما كان يفكر فيه القائد وبعض حضور الاجتماع، لذلك فقد تم الاتفاق على تنفيذه، وكلف أحدهم باختيار من يقوم بالمهمة.. وانتهى الاجتماع.



في المكان ذاته الذي قابلا فيه الجنرال بيكونين تشيخوف وغير بعيد من الكازينو، كان الشابان في الموعد ينتظران... ومن بعيد في رأس الشارع ظهرت سيارة الجنرال.. وحك أحد الشابين كفاً بكف وهو يرمقها بتوتر واضح، أما الآخر فقال: جنرالات العار.. وبصق على الأرض. وتوقفت السيارة، وأطل الوجه الأحمر المكتنز من زجاجها الخلفي، وأشار إلى الشابين فاقتربا وركبا، ونزل السائق قاصداً الكازينو.

كانت الساعة حوالي العاشرة والنصف ليلاً، وكان الزجاج المضبب لنوافذ سيارة الجنرال يجعل من الصعب معرفة من بداخلها، حتى وإن كان من المحتمل جداً أن يكون في الكازينو أو قريباً منه بعض عناصر المخابرات الروسية...

سعل أحد الشابين، ليخفي صوت ضغط زر المسجلة التي يخبئها تحته، وقال الجنرال: أظننا..

وقاطعه الشاب الآخر:

هناك أشياء جديدة طارئة يا جنرال.

فالتفت إليه الجنرال وتأمل وجهه في استغراب وكأنه أحس بمؤامرة أوسع من المتفق عليه سالفاً، وقال:

أشياء جديدة؟ ماذا تقصد؟

قال الشاب:

أين يقيم عناصر الموساد الذين يقومون بزيارة للمنطقة؟ ولماذا هم هنا؟

وراح الشاب يطرح أسئلته في عجلة وسرعة، فاستوقفه الجنرال، وهو يقول:

لا علم لي بكل هذا أظن أن الذي يزور المنطقة هم خبراء وليس عناصر استخبارات الموساد.. وربما وجهتهم جيورجيا بعد أن أعلنت روسيا أن عناصر إسلامية توافدت عليها... روسيا طبعاً صرحت بذلك لتطلق أمريكا يدها في جيورجيا المطالبة بالانفصال، لكن الأمريكان استغلوا التصريح الروسي ليدفعوا بمئات الخبراء إلى هناك لملاحقة هؤلاء الإسلاميين، وكأن التصريح الروسي كان بطاقة دعوة لهم ليرسخوا وجودهم في المنطقة...

كان يبدو على الجنرال أنه يتكلم بدون حماس، وفجأة فتح الباب، مد يده إلى الخارج وقال: إنه الثلج.. كانت مناديف الثلج الصغير تتنزل مترنحة حتى إذا بلغت الأرض احتضنتها وذابت فيها، ولم يأبه الشابان بالخبر، ولعلهما أحسا أن الجنرال يريد أن يتهرب من الجواب، فأعاد أحدهما عليه السؤال:

مسألة معرفة مكان إقامة عناصر الموساد تهمنا كثيراً... طبعاً كل شيء بثمنه.

وسعل الجنرال سعلات خفيفة متتالية، ثم قال:

تعرفون أن القضية ليست سهلة، وإفشاء سرّ كهذا...

وقاطعه أحد الشابين:

وما ندفعه لن يكون قليلاً.. خمسين ألف دولار.

وحك الجنرال ذقنه وهو يقول:

يقيمون في فندق (القصر الأحمر) تسعة أفراد، لا أعرف شيئاً عن الملفات التي تأبطوها إلى هنا، ولا عن جدول أعمالهم.

قال أحد الشابين:

والأمر الذي تركنا لك مهلة لدراسته؟

فرد الجنرال:

يوم الثلاثاء القادم، سنرسل قوة روسية للقيام بعملية تمشيط في المنطقة (ب) المطلة على غروزني.

فقال أحد الشباب وقد بدا عليه النشاط والحزم:

متى بالضبط.. وكم تعداد القوة؟ وما سلاحها؟

قال الجنرال:

ثلاثمائة جندي في قافلة من الشاحنات تتجه إلى المكان المذكور، معهم أسلحة محمولة، وبعض مدافع الدكتاريوف، يقودهم الجنرال السلافي تشرنو مردن زيفانوف.

فقال أحد الشابين في شبه جملة اعتراضية أو تعليق:

عدوك..؟!!

قال الجنرال:

نعم هو.. لا أعرف كيف يتقرب إلى القيادة العليا في البلاد وكيف يحرز الحظوة والاهتمام..؟

فرد أحد الشابين:

إذن أنت أيضاً ستستفيد من هذه العملية، إذ أنك ستتخلص من عدوك، وهذا يفترض خصماً على المقابل الذي ستتقاضاه في هذه الصفقة...

قال الجنرال:

لكن..؟!!

لا تهتم ستأخذ حقك مثلما اتفقنا، نحن مسلمون، والوعد عندنا التزام وعبادة..

قال الجنرال:

أعلم ذلك..

كانت مناديف الثلج قد ازدادت وتكاثرت وكان أحد الشابين يفتح باب السيارة وينزل، أما الشاب الآخر فقد أخرج من تحته آلة التسجيل وقال للجنرال:

كان لدينا عنك وثيقة مكتوبة، والآن عندنا الصوت..

وفي المرة القادمة سنحضر معنا كاميرا فيديو.. خذ هذه.. (وألقى إليه بحزمة من الدولارات) فالتقطها الجنرال من حجره، ودسها في جيب سترته الداخلي وهو يقول:

شكراً لكم... مع السلامة.. مع السلامة. (وتبعهما بعينيه وهما يغيبان في ظلام شارع جانبي.



الأرض أم العقيدة؟!!

المادة أم القيمة؟!!

التراب أم الثقافة؟!!

كانت الفكرة تلح على ناصر الدين وقد استلقى على ظهره بعد ساعات التدريب القاسية، وكان شاباً مجاهداً يتقد حيوية وذكاء، يميل إلى الوحدة والخلوة، شجاعاً، مقداماً، يطلب الموت ويتحدر على العدو تحدراً، له بسطة في العلم والجسم، في الثلاثين من العمر، لحيته كثة، لا تراه إلا مشغولاً، حفظ القرآن الكريم في سنوات الجهاد، يتغنى به على الدوام، ويحب سورة الأنفال...

التراب أم العقيدة؟!!

هل خلق الإنسان من أجل الأرض أم خلقت الأرض من أجل الإنسان؟!!

ولماذا يموت الإنسان من أجل الأرض التي خُلقت لأجله.. أهي الغاية؟!!

استوى جالساً، وكان أبو الوليد وأبو مصعب يراقبانه من بعيد... ربما كان يبدو عليه التوتر.. لكن بالتأكيد لم يكونا يعرفان سبب توتره، لذلك اقتربا منه، وسلما:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

فرد التحية بأحسن منها، ولم يرفع بصره عن الأرض، كانت الفكرة تستولي عليه، ولربما تمنى لو أنه بقي لوحده وقتاً أطول يتسنى له فيه حسم هذه الإشكالية، وبادره أبوالوليد:

ما الأمر يا ناصر الدين؟

ليس هناك شيء، فقط هي الأفكار

الأفكار أم الشوق؟

ومرّ أزرق اليمامة فقال:

دعوا المسكين يذهب ليتزوج مثل جميع أترابه.. ألا ترون أنه بدأ يعجز ويخرّف، وإذا ما تماديتم في استبقائه فسيصيبه الصدأ والتآكل ويفوته القطار..

ودون أن يتوقف عن المشي إلى مقصده أضاف أزرق وهو يتمتم: أمرهم عجيب.. يتركون الطيبات وصيف لندن ليبيتوا تحت الجليد..

وضحك الثلاثة، ووجدها أبو الوليد فرصة ليعرف ما يفكر فيه صاحبه ليسرّي عنه، فسأله:

هل هو الشوق إلى الأهل، أم الرغبة في الزواج كما يقول أزرق؟!!

فرد ناصر الدين وهو يمسح زجاج ساعته:

في فلسطين اليوم أطفال وشيوخ يموتون من أجل الأرض.. مَن الأولى: الأرض أم الإنسان؟ هنا وفي كل مكان يقاتل الناس ويموتون من أجل الأرض.. وفي كثير من البقاع يموت آلاف وملايين الشهداء من أجل أرض ما، وبعد استقلالها تقام فيها الكازينوهات وتحكم بالشيوعية أو قوانين الأرض.. وتصبح قيمة الإنسان فيها كقيمة فردة حذاء.. فهل يقاتل العاقل من أجل الوصول إلى مثل هذا الواقع؟ هل يقاتل من أجل أن يحرر بلاده ليكون فيها ممنوعاً من ممارسة دينه كما أراده الله تعالى؟!!

قال أبو الوليد:

فعلاً فكرة شائكة..

وقال أبو مصعب:

تحرير الأرض يقوم على فكرة الاستخلاف والتمكين، والنية التي يجب أن تنعقد حول تحرير الأرض كأرض للإسلام والمسلمين تقام فيها الشريعة، لذلك فإن الجهاد ليس لتحرير التراب، بل للحفاظ على أرض العقيدة وعلى إنسان العقيدة في أرض الإسلام.. وإلا فإن المسلم أعظم عند الله من كل مادة وتراب، ومن كل أرض.. وهو أشد حرمة من الكعبة.. إننا نقاتل من أجل أرض غرس فيها أجدادنا نخيل التوحيد، فجاء الغازي يجتثها ويقيم فيها الغرقد، وأشجار رؤوس الشياطين والإلحاد.

القضية هنا ليست قضية أرض أجداد، فالمسلم، مثلاً، لا يجوز له، إن كان روسياً مثلاً، أن يقاتل الفاتحين المسلمين فقط لأنهم يريدون أخذ روسيا، أرض أجداده.. كما أن المسلم لا يجوز له أن يتخلى عن الدفاع عن أرض إسلامية محتلة لكونها ليست أرض أجداده.. إن وحدتنا عقديّة.. لا جغرافية.. نحن من أمة واحدة.. حتى وإن تفرقت بنا الأمصار والديار.

ونطق أزرق اليمامة ليكتشف الثلاثة أنه انضم إلى مجلسهم، وقال لناصر الدين وهو يشير إلى بسطة جسده:

هذا الطول والعرض ولا تفهم الأمور حتى يفهمك فيها أبوالوليد وصاحبه، وهما إن عُجِنا جميعاً لا يصنع من طينتهما مثل هذه القامة المتعبة التي ما فتئت تحملها وتدور بها منذ ثلاثين سنة، ثم في الأخير جئت بها إلى هنا لتستلقي بها على قرابة نصف مساحة أرض الشيشان ولتطرح الأسئلة التي لا معنى لها.. وما دخلك أنت في كل هذه الأسئلة والمشاكل..؟ قاتل المشركين كافة ولا يهمك، وحتى إذا لم تتحرر الأرض فأنت تنقص من أعداد أعداء الله، ولك الأجر.

وهم كذلك مرّ حامد الطباخ، وفي يده كيس شفاف من الخضر، وقال:

يا أزرق.. هيا معي لإعداد الغداء، وتقشير الخضر، فحدجه أزرق بنظرة شزراء، ثم نفض أطرافه بحنق ولحق به، وكأنه تذكر شيئاً بعد خطوات فالتفت إلى الجماعة وقال لهم:

إذن أنا لا أصلح للنقاش.. سترون ماذا أضع لكم في المرق.

وانفجر أبو الوليد ضاحكاً وهو يقول:

جزاك الله خيراً يا أزرق.. وجودك ضروري فعلاً.. جزاك الله عن المجاهدين خير جزاء أيها المجاهد الطيب..

● ● ●

كانت الليلة حاسمة، وبين السحب المتدافعة في السماء، كان القمر يظهر ويختفي كسباح متسابق يأخذ من الهواء نفساً ثم يعود للماء...

كانت الخيام القليلة المبثوثة بين أشجار الغابة عرائن تحتضن أسودها لساعات أخيرة قبل الخروج إلى موعد حاسم...

ليلة الإثنين إلى الثلاثاء... الجو بارد، والمكان قطعة جميلة يصنعها نور القمر وهو يتنزل هادئاً على الأرض، بعضهم كان قد آوى إلى فراشه يتزود بقسط من الراحة والدفء، أما البعض الآخر فآثر أن يسهر ليله بالقيام.. وفي حرارة السجود يصعد صوت غريب مشرد إلى ربه العظيم:

.. اللهم إننا ضعفاء إلا إليك، فَقَوِّنا وانصرنا على من عادانا... وتتحدر على الأرض دمعتان، كان قدرهما أن تتحدرا هنا، لتكونا شاهدتين على صاحبهما...

ولم يكن سالم إلا ذلك الشاب الذي تحرقه أشواق الشهادة فلا يسمعه إخوانه إلا ملحاً في طلبها بدعائه... في ذلك المساء وصلته رسالة من أخيه، يقول فيها: مات والدي بعد رحيلك عنا بسنة... وبقيت أمي تضم طيفك كل ليلة وتنام على دموعها، والبارحة بردت يدها الدافئة، وصدرها الحنون كف عن النبض، أتعبها المرض، وكان آخر ما قالت قبل التشهد: أقلب بصري فأرى وجوهكم جميعاً، وحده وجه سالم الحبيب يظل بعيداً.. اشتقت إليه.. بلغوه سلامي..

كان وجه أمه في ذاكرته باهتاً كقنديل خافت.. وطالت سجدته، وهو يدعو بحرقة تشي بها يداه وهما تتشبثان بالتراب تشبثاً:

اللهم لوجهك الكريم خرجت، تركت قلب أم... يا رب... فارحمها، وارحم والدي، واجمعنا قريباً في مستقر رحمتك.. اللهم شهادة ينتهي بها اغترابي وشوقي... هذا عبدك الضعيف يدعوك وقد غابت العينان اللتان كانتا تحترقان لأجله.. يا رب شهادة.. شهادة.. شهادة، وغمغم غمغمة كسير.. وبكى وأبكى..

وكان أبو مصعب قائماً قريباً، اعتصره الموقف، وهو يرتل آيات الكتاب الكريم، يخنقه النشيج...

فيا للفتية الغرباء.. فتية العراء والبعد حين يعتصرهم الشوق.. فتية الله الذين أخرجهم الواجب، أو شردهم الظلم...

كان القمر فوق قبر أم سالم صامتاً... كما كان فوق ابنها الساجد في أقاصي الأرض ونائيها شاحباً تائهاً... وكانت حرارة السجود تنسي برودة الجو التي تتغلغل في المفاصل في ليل العراء... الليل شيخ مسن يجر أقدامه نحو الفجر، متئداً بطيئاً.. أما نبض القلوب فكان قنبلة موقوتة... ثوانيها وقع أقدام... والانتظار على وقعها أشد من الموت.. وتنفس الفجر.. وماهي إلا ساعة حتى انقضت صلاة الجماعة، ودبت الجلبة، فهذا يلبس بزته، وذاك يعد سلاحه، وذلك يعانق أخاه.. وهبت

نسمتان... ريحان.. ريح للنصر.. وريح للجنة.. واستنشق كل مجاهد ما كتب الله له.. وأصدرت الأرجل أصواتاً متداخلة، وهي تتحرك نحو مقصودها..

وكان لسان سالم:

الشهادة يا رب.. الشهادة.



الساعة السادسة صباحاً... كانت الساعة الضخمة المنتصبة في الساحة العامة تشير إلى ذلك بدقاتها المزعجة.

كانوا ثلاثة يقطعون الشارع نحو باب الفندق في صمت.. ثيابهم أنيقة ورسمية، يقع في نفس الذي يراهم من الوهلة الأولى أنهم رجال أعمال، أو ذوو هيئات، لذلك لم يستوقفهم أو يسألهم أحد، وانحنى لهم العمال في المدخل، واستأذنهم غيرهم في إيصال حقائبهم إلى غرفهم، لكنهم اعتذروا... وكان أحدهم في عربة إعاقة يدفعه أحد صاحبيه..

في المصعد تأملوا هندامهم في المرآة وأرخى محمود ربطة عنقه قليلاً مبدياً منها تذمراً بكلمات مبهمة وخافتة.

بعد لحظات كان الرقم الالكتروني (٥) يرتسم بالضوء الأحمر فوق باب المصعد..

إنه الطابق الخامس، لننزل، قال جميل الرحمن، وهو يلتقط حقيبته من أرضية المصعد..

وانفتح الباب.. وأطل بدر على الرواق الطويل، فبدا هادئاً، خالياً من المقيمين والعمال، وأشار إلى صاحبيه، وبخطى لا يسمع وقعها على السجاد الأحمر أخذ الثلاثة طريقهم نحو الغرفة (٥٠٣) يدفعون العربة، كان الباب موارباً، دفعوه بهدوء واحتراس، ودخل جميل الرحمن وبدر، أما محمود فقد ألقى نظرة على الرواق ليتأكد أنْ لا أحد قد

رآهم، ثم دخل وأوصد الباب خلفه..

كان أحمد في انتظارهم، ألقوا السلام فردّ وهو يأخذ من تحت سريره كيس قماش أبيض ويناوله لجميل الرحمن الذي فتحه بسرعة وهو يقول:

جيد.. جيد.. جزاك الله خيراً

وألقى خنجراً إلى محمود، كما ألقى بطاقة إلكترونية لفتح الباب إلى بدر، وأخذ هو إبرة (حقنة) طبية مملوءة سائلاً، وقال لأحمد:

كيف فعلت كل هذا بهذه السرعة..؟

قال أحمد:

عطلت كهرباء غرفته، هذه المجاورة عن اليسار، رقمها (٥٠٤) وانقطع عنه التكييف فاضطروا إلى نقله إلى غرفة أخرى، فوجدت الفرصة سانحة لنقل أغراضي إليها، ووضع الإدارة أمام الأمر الواقع لئلا أضطر لأخذ موافقتها، وكنت أثناء ذلك قد أخذت بطاقة إلكترونية لفتح الباب... لكنه عاد فطلب غرفته، وألحّ، فطلبوا مني إخلاءها، واحتفظت بالبطاقة معي بعد أن أخبرتهم بضياعها.. أما هذا المخدر الطبي في الإبرة، فأنت تعرف أن الحال الاقتصادية للبلاد تجعل الرجل يبيع أعضاء جسمه، لا مخدراً طبياً فقط.

وربّت جميل الرحمن على كتف أحمد وهو يقول:

أحسنت يا أبا المهمات الصعبة.

وانتبه محمود إلى ساعته، وهو يقول:

لا وقت لدينا يا إخوتي.. هيا، وأكثروا من الدعاء، وذكر الله تعالى، وأخلصوا النية لله تعالى، أما أنت يا أحمد فأنْهِ حجزك الآن في الاستقبال، واخرج من هنا بسرعة.



كانت اللحظات حاسمة، ودقات الساعة تتقدم نحو السابعة، وفي الساعة الثامنة يحضر عمال خدمات الغرف والتنظيف، وكلما ضاق الوقت وقعت الأخطاء.. وهنا لا مجال للخطأ..

ترى ماذا لو يكون الجنرال بيكونين قد بلّغ المخابرات الروسية أنه تحت الضغط قد أعطى معلومات عن مجموعة الموساد القادمة هذه، والتي ينام قائدها، وهو برتبة عميد في الغرفة (٥٠٤)..؟!!

أيمكن أن يفعل ذلك؟!!

كانت الفكرة تجول ولا شك في أذهان الثلاثة الذين خرجوا في هذه اللحظة بلباس عمال الفندق، يدفع أحدهم أمامه كرسي الإعاقة، ووضع بدر رأس بطاقة الفتح في الفتحة المخصصة لها، وقبل أن يدفعها إلى الداخل دارت في ذهنه كل الاحتمالات السيئة، ومنها احتمال أن تكون العملية قد تحولت إلى كمين سيقع فيه وإخوته بعد لحظات... ورفع رأسه إلى السماء كأنما يستعين ربه سبحانه، ثم أغمض عينيه واستنشق كمية من الهواء، ثم دفع بالبطاقة، فأحدثت طقة خفيفة، ثم دفع الباب، ودخل، وفي فمه جملة بالإنكليزية سيلفظها إذا فوجئ بالنزيل مستيقظاً.. سيقول له: صباح الخير يا سيدي.... لكنه بعد لحظة وجد أنه لا حاجة لهذه الجملة، فقد كان النزيل يغط في نومه.. وأمسك الباب

لـئلا ينغلـق، وأخـرج رأســه إلى الـرواق مشـيراً إلى صـاحبيه بالدخول...

اقترب الثلاثة من السرير بعـد أن أغلقوا البـاب خلفهـم، ، ووضعوا عليه بطاقة نرجو عـدم الإزعـاج والـتي يحترمهـا العمـال في الفنادق الفخمة، ولا يجرؤون على انتهاكها بـدخول أو قـرع باب، أو ضجيج..

وقام محمود بإيقاظ النزيل الذي فتح عينيه فوجد الخنجـر مشـهراً قريبـاً مـن رقبتـه، وبإصبعه السـبابة أشـار إليـه محمـود بأن يلزم الصمت، وأذعن، واقـترب منـه جميـل الـرحمن وحقنـه بإبرة المخدر، وما هـي إلا لحظات حتى كان غائباً عن الوعي.

وما إن بـدا مفعـول المخـدر علـى النزيـل حتـى سـارع الثلاثة إلى وضعه في عربة الإعاقة، وانطلق اثنان يدفعانه خارجاً، أمـا جميـل الـرحمن فقـد تخلـف في الغرفـة يفتشـها علّـه يجـد شـيئاً مهماً يتعلق بالزيارة، أو بغيرهـا...

لم تكن المهمة سهلة، وكان بإمكان أي عنصر آخر من الموساد أن يتعرف علـى العميـد الملقـى في عربـة الإعاقـة، كمـا كـان ذلـك ممكنـاً لأي عنصـر مخـابرات روسـية أوكلـت لـه مهمـة ضـمان أمـن المجموعـة، بـل إن عمـال الاسـتقبال أيضـاً يمكـن أن يتعرفـوا علـى النزيـل.. لـذلك عمـد محمـود وبـدر إلى تمويـه وجهـه بطريقـة يصـعب معهـا التعـرف عليـه، وألقيـا عليـه غطاء صوفياً موهمـاً أنـه وقاية من البرد القارس.

كان وقع الأرجل على الرخام الأبيض يثير الانتباه في هذه الساعة قليلة الحركة، وكان أحمد واقفاً إلى الجانب الآخر من المكتب الطويل للاستقبال، وليلفت الانتباه إليه ألقى كأس الماء الذي كان في يده إلى الأرض ثم سقط هو، وهرع البعض إليه، وتحولت نحوه الأنظار، وخرج بدز ومحمود بنزيل الغرفة (٥٠٤).

كانت السيارة في انتظارهم غير بعيد، وكانت لحيتا محمود وبدر تثيران الشكوك، أما أحمد الذي كان الآن يقنع المحيطين به بأن الأمر بسيط، ولا يحتاج إلى إسعاف، فقد كان أمرد، لا شكوك حوله.. وكانت السيارة التي ستقل المجموعة والنزيل هي سيارته، لذلك لم يكن من الممكن أن يتأخر أكثر عن أصحابه.

قال محمود وهو ينظر نحو مخرج الفندق:

تأخر أحمد.. إن لحانا تثير الشكوك.

قال بدر:

اطمئن فإننا نبدو كشيوعيين متعصبين.. إن الله ينصر دينه بالرجل الفاجر، وبأقوام لا أخلاق لهم.. إن لحى الشيوعيين تنصرنا في هذه اللحظة، فلا يكاد أحد ينتبه إلى أننا غير ذلك.. تأكد يا أخي لو أننا في بلد غير شيوعي لكانت مهمتنا أصعب، ثم نظر بدر إلى النزيل وهو يقول:

ملطخ بدماء أبنائنا وإخواننا في فلسطين.. ومستبيح لحرمة المسجد الأقصى.. يا للقذر. وضغط على أسنانه في حنق.

قال محمود:

هذا أحمد قد جاء، وهذا خلفه جميل الرحمن.. يارب سترك وتوفيقك..

وما هي إلا لحظات حتى كانت السيارة تتعرج بالخمسة في منعطفات جبلية، ومن مسجّل السيارة المغلقة كانت الآيات القرآنية تنبعث كالسلسبيل نورانية تمتزج بالأرواح الشفافة..



من قمة الجبل بدت غروزني في هذه الساعات الأولى من الفجر... متلألئة... تتوسد أغلالها وتتأمل الأفق... هادئة كانت... لا غير غمزات المصابيح التي تخبو ثم تعود للإضاءة بقوة... ورمقها الصقر عبدالرحمن قائد المجموعة بنظرة فيها الكثير من المعاني، فهي مدينته، ولد فيها.. وفيها ولد أجداده.. مسلمة كانت منذ قرون، ألقى عليها البعض رداءه الأحمر، لكنها ظلت في ليل الشيوعية الأليل تعلن إسلامها.. وأنها لله لا لقيصر..

غروزني ملحمة الفداء وملتقى ليوث المجد، أخت سراييفو، والقدس، وقندهار...

كان الوقت صباحاً، وليس في غروزني صباح، فكل أوقاتها مساءات للسبي، وللقيود، وللأسى... وتحرك لسان عبدالرحمن:

لهفي عليك غروزني هذا المساء

فتلفعي بالثلج إن عز الرداء

وتوضئي بالحزن يا أختي التي

عبثت بها أيدي الغزاة الأشقياء

فاقترب منه أبو مصعب ووضع يده على كتفه وهو يقول:

إن لم نحررها، فستأتي أجيال تحررها، والمهم أن نبقى نقاتل لنورث السلاح ساخناً حاراً للجيل القادم.. كم سيصمد

الذين أخذوا أراضينا وامتهنوا شعوبنا المسلمة، وعقيدتنا الطيبة في مشارق الأرض ومغاربها؟.. كم سيصمدون؟ عاماً.. عشرة.. قرناً؟ لن ندعهم يستريحون.

قال أبو الوليد:

لكن ألا تظن أن أجيالنا نحن أيضاً ستتعب؟

فرد أبو مصعب:

ومتى استراحت أجيالنا؟ هم لهم خياران... أما نحن فلا خيار لنا، هناك واقع واحد كان دوماً قدرنا، وهو العيش في ظل الاستعمار، والامتهان.. أيمكن أن تقول لي متى عاش الشعب الفلسطيني مستريحاً قبل الانتفاضة؟ الشعب الفلسطيني كان دائماً مذبوحاً، أما في أوقات المقاومة، فإنه يصير ذابحاً ومذبوحاً، ووحدهم الظلمة والمغتصبون من يخسرون إذا ووجهوا بالنار والدمار.. ذلك لأن النار عندهم تقابل الأمن الممكن.. أما الضعفاء فلا أمن عندهم لتكون الحرب بالنسبة لهم خسارة.. الأمر شبيه بجوع الأغنياء المتخمين والفقراء.. الفقراء حياتهم كلها جوع، لذلك فهم يحسون بشيء من النشوة حين تأتي الظروف التي يجوع فيها معهم الأغنياء المتخمون.

تأملت المجموعة المدينة الحبيبة، التي يغفى فيها أهلها المسلمون في هذه اللحظة على أحزانهم، كباراً وصغاراً.. وتحركت الخطى منحدرة بين الأشجار، كما لم تكف الألسنة عن حركتها بالدعاء والذكر.

شهق الضوء شهقته الأولى، وبدأت حبيبات النور تمتزج بالأثير، وتمسح الظلمة عن الوهاد والنجود... لحظات عجيبة تلك التي يخرج فيها النهار من صلب الليل، ضعيفاً، مغبشاً، ويبدأ يوغل في الظهور حتى يستوي عوده، ويصبح نهاراً كاملاً بضوئه ووضوحه..

وأخرج سالم من جيبه ورقة مغلفة بالشريط اللاصق، وهو يقول:

يا إخوتي هذه وصيتي، إنها هنا تحت الصخرة، أضعها هنا فإذا حدث لي شيء، فخذوها في طريق رجوعكم، إنني أحس بدماء الشهادة قد ضجت في عروقي.. لقد حضرت عشرات المعارك هنا، وفي البوسنة وفي أفغانستان.. وما أحسست بهذا الإحساس الذي يتملكني الآن.. إنني أكاد أُحلِّق في عالم آخر...

كانت الكلمات مؤثرة، ولم يجد إخوانه كلمة يقولونها له، لذلك فقد ساد الصمت، وكان سالم أول من قطعه بوقع خطواته، وهو يستأنف السير منحدراً.. وتبعه إخوانه.. وترامت أصوات محركات تهدر...

أسْ.. سْـ... سْ... (قالها بعضهم بصوت واحد..)، وتوقفت الحركة، وأصخت الآذان موجهة نحو الأسفل..

كانت الأصوات أصوات شاحنات، ولم يكن هناك مجال للشك أنها القافلة الموعودة، لذلك فقد تسارعت

الخطى، واندفع الشباب نحو مقصدهم، وكانوا كلما تقدموا أكثر ازداد الهدير وضوحاً..

ووصلوا إلى المكان الذي اختاروه لإقامة الكمين فيه، مصطبة مشرفة على الطريق، ولا أسفل من الطريق في الجهة المقابلة سوى الهاوية التي لا منجى منها ولا مهرب من خلالها.

أخذ كل فرد مكانه، وحبست الأنفاس في انتظار اللحظة الحاسمة... كانت دقات القلوب تزداد مع دوران عجلات الشاحنات المتتالية التي صارت على مرأى من المتربصين بها...

حبست الأنفاس، وتقدمت القافلة، حتى إذا أحس المجاهدون ورأوا أنها في قلب المصيدة، انهالوا عليها بزخات من القنابل، وأمام المفاجأة بدأ جنود العدو يقفزون من الشاحنات ورشاشاتهم تثرثر في كل اتجاه.. وحاولت بعض الشاحنات التحرك، غير أن تركيز المجاهدين على الشاحنات الأولى التي في رأس القافلة والأخيرة التي في ذيلها قد شلّ حركتها وحال دون تقدمها أو تراجعها..

كانت رشاشات المجاهدين حصاداً لا يهدأ للجنود الروس الذين علا عويلهم وصراخهم أمام تكبيرات الأسُودِ وهول الموقف.

ورفع عبدالرحمن جهاز المكبر (الميغافون) ودعا الجنرال إلى الاستسلام.

كانت غروزني تشاهد الموقف من بعيد، وتضع يدها على فمها خوفاً من أن تتكشف نشوتها..

وخرج الجنرال تشرنومردن زيغانوف من بين الشاحنات يصرخ:

أنا الجنرال..

وترنح وهو يأخذ طريقه نحو المصطبة، تدفعه خطوة إلى الأمام، وترجع به أخرى إلى الخلف... كانت الطلقات تتناقص شيئاً فشيئاً، حتى خمدت، بينما كانت ألسنة النار تلتهم الشاحنات التهاماً...

ورفع القائد عبدالرحمن يده وهو يقول:

أوقفوا إطلاق النار..

وخرج سالم بخفة مذهلة نحو الجنرال يريد استلامه، فإذا به يخرج من حزامه مسدساً ويطلق منه طلقتين باتجاه الشاب الذي بات ليلته بين يدي ربه يتوسل إليه ويدعوه بكل اسم من أسمائه الحسنى أن يرزقه الشهادة..

كانت المسافة بين المجرم والشهيد لا تتجاوز خمسة أمتار، وتحسس سالم صدره بيمناه ثم رفعها أمام عينيه، فإذا هو مهر الجنة.. أحمر قانياً.. حاراً.. السائل الملتهب الذي طالما أقض مضجع صاحبه وجاء به يقطع الوهاد والنجود...

كان الجنرال واقفاً كخشبة... وتأمله سالم بنظرة

رهيبة، ثم اقترب منه، يغالب نهايته... ومد يديه إلى رقبته فأمسك بها، وأطبق عليها يخنقه.. وحاول الجنرال أن يدافع نفسه، لكن اليدين كانتا تضخان آخر ما فيهما من عزم ومن قوة، وتلوّى الجنرال، غير أن الفتى لم يفلته، سقط معه على الأرض، وظل يعصر أوداجه حتى أرداه جثة هامدة.

كان سالم على ركبتيه حين ألقى من يده رأس عدوه، ثم سجد لله سجدة، رفع منها والتفت إلى أصحابه، تأمل وجوههم وهو يبتسم، ويقول: فزت ورب الكعبة وهوى إلى الأرض ساكناً..

كانت خسائر العدو ثلاثمائة جندي في الأرواح، مع الكثير من الأسلحة والغنائم...

التي اهتم المجاهدون بجمعها وألسنتهم لا تكف عن حمد الله تعالى، وفي تلك الأثناء كان أبو مصعب وأبو الوليد ومعهم القائد عبد الرحمن يقفون على جسد الشهيد الذي عاش حالماً ومات مبتسماً.. فقال أبو مصعب وهو يمسح دموعه:

إنه ابن حيّنا، كان ولداً صغيراً، أذكره مع الصبيان.. يملأون الحي حيوية ومرحاً... وأذكره حين يدخل المسجد يقطر وجهه وذراعاه من ماء الوضوء... كان صادقاً.. أخلاقه في المسجد هي أخلاقه وهو يلعب الكرة، لا يعرف التصنع ولايحمل الحقد... وكانت أمه تحبه، حدثني بعضهم في رسائلهم إليّ، أنها قبل موتها بشهور كانت تجلس على عتبة

الباب الخارجي، تنظر نحو الجهة التي قيل لها أن الشيشان فيها.. تتنهد ساهمة، وربما غلبتها عبراتها إذا سألها عنه أحد، فتقول وهي تمسح عيونها: كنت أحبه.. واشتقت إليه كثيراً.. حينما كان صغيراً، كنت أضع رأسه في حجري، وأمسحه وأفلّيه... وكنت أتأمل عينيه فأرى فيهما أشياء مخيفة...

مسح أبو مصعب نهر الماء والملح على خده، وأضاف:

ما فتئت هذه العقيدة تنجب مصعباً بعد مصعب.. شباب يترك حياة الرغد، ورقيق الملبس، يلتحق بأهوال الجهاد، ليموت غريباً.. لله ما أعظم هذا الدين، وما أروع أتباعه الصادقين الذين تمثلوه فعلاً...

كانت لفحات البرد تلسع الوجوه البادي بعضها من خلال اللحف، أما وجه سالم فقد استحال في تلك اللحظة قطعة من فضة.. مشرقة، باردة، وتأمله إخوته قبل أن يدفنوه.. واسترجع بعضهم صورته في الليلة السابقة حين كان ساجداً لله تعالى يدعوه ويلحّ...

دارت عقارب الساعة... وكانت أنفاس المجاهدين تتراءى كدخان، نضح بعضهم ما عنده من الماء على سنام القبر.. وتحركت الخطى راجعة من حيث أتت، ووحده سالم لم يرجع مع إخوانه، وحدها قدماه التي رسمت في الأرض آثار المجيء، وانقطع بها الدرب... وحده المتروك هنا... فمن كان يظن أنه يقطع كل هذه الأميال ليدفن في قبر سيطويه

الزمان، ولن يتعرف عليه بعد عقود أحد... سوى أن صاحبه جاءت به خيول الشوق تضج من بعيد.. حتى إذا بلغت به هذا المبلغ، رحم الله توقه وشوقه واختاره إليه.

كان الرتل خاشعاً.. خطوة.. عشر... مائة، كاد القبر يختفي، استدار أبو مصعب إلى الخلف، استدار لاستدارته أصحابه.. مسح عينيه، مسح بعضهم عينيه، وهم يقولون: رحمه الله وتقبله شهيداً

قال أبو الوليد، وهو يطوق خصر صاحبه أبي مصعب ويشده إليه مسرياً عنه:

مشيناها خطى كتبت علينا

ومن كتبت عليه خطى مشاها

مد أبو مصعب يده إلى حيث وضع سالم وصيته، أخرجها، تابع السير لاحقا بأصحابه، فك عنها غطاءها في حذر ورهبة كأنه يفك عن صاحبها أكفانه، قرأ سطرا، لم يتمالك نفسه، قربها من فمه مرتجفا، قبلها والبكاء يخنقه، استدار إلى الخلف وهو يقول: بالله كيف أتركك هنا وأرجع؟

* * *

كان القادم من أوروبا يحمل البريد في أقراص... إذ أن الترتيبات تقتضي كما هو معمول به منذ سنوات طوال، أن يرسل أهالي المجاهدين رسائلهم إلى ذويهم عن طريق عناوين في بلدان أوروبية، ويقوم شباب هناك بتضيد هذه الرسائل على الكومبيوتر، وإدخالها في أقراص، ثم يحمل القرص الواحد الذي يحتوي على مئات الرسائل والصور والوثائق إلى الشيشان، وهناك يتم تفريغه وطبعه، ليتسلم كل مجاهد ما يخصه.. ونقل قرص واحد في زمن التكنولوجيا أسهل من نقل بريد ورقي من مئات الرسائل...

استلم أبو مصعب رسالته، ومد يده ساكناً ليتسلم رسالة سالم بعد أن سمع اسمه...

وصلت متأخرة رسالة سالم.. إنها من أخته.. والأخت أمّ في حنانها.. غير أن يد سالم لا تستطيع أن تمتد لتلمس هذا الحنان في هذه الورقة، كما أن عينه لا ماء فيها لتتهجى أحرف الشوق...

ارتعشت يد أبي مصعب وهو يفتح رسالة سالم.. كانت شقيقته توصيه بأن يهتم بنفسه، أن يأكل جيداً، أن يتدثر من البرد، وبرقت في عيني أبي مصعب حبتا دمع... وهو يتمتم:

كان مدللاً، وحرصوا على تدليله حتى في رسائلهم.. أما بعد اليوم فلا.. ولم يستطع إكمال الجملة.. كان أبو الوليد ينتصب أمامه، ورفع بصره نحوه وهو يقول: ما الأمر؟

قال أبو الوليد:

وصلتني رسائل عدة من الأهل والإخوة.. ابن أختي الأصغر يقول لهم: عندما أكبر سألتحق بخالي، يقصدني.. أتعرف؟ إن سمط الجهاد في هذه الأمة لن ينقطع، يموت عليه الكبار ويولد عليه الصغار... وفي فلسطين أكبر دليل على ذلك، إن هؤلاء الذين أشعلوا المقاومة وبدؤوها كصغار الحطب التي تكون مبدأ النار الكبيرة هم أبناء اليوم، لم يولدوا قبل ١٩٤٨م ولا قبل ١٩٦٧م، لكنهم ولدوا يحملون القضية.. أين يذهب أعداؤنا منا..؟ إنهم يظنون أنهم سينعمون بالأمن غداً، ولن يكون ذلك، فبعد أبي الوليد، هناك ابن أخت أبي الوليد.. وسنذيقهم الويل، فويل لهم...

قال أبو مصعب: وكيف حال الأهل؟

قال أبو الوليد: الحمد لله، بنعم وفضل.. مشكور ربك غير مكفور.

قال أبو مصعب: الحمد لله.

كان الليل يقترب حثيثاً وكان الشيخ مروان يقوم مع بعض الشباب بإعداد العشاء... قال أبو الوليد وهو يكسّر بين أصابعه غصناً يابساً التقطه لتوه من الأرض:

هل من رسالة من الأهل؟..

فرد أبو مصعب:

أصيب ابني في رجله فانكسرت.. أحس مرارة اللحظة التي وقع فيها الحادث، لربما لم يجدني أمامه فأحس بالحزن.. أتعرف؟ منذ أن قرأت الرسالة وقصيدة حزينة تعجن في ضلوعي.. حاولت استلالها من لساني كما تستل الشعرة من العجين، حاولت استخلاصها من أضلعي كما تستخلص الزبدة من اللبن.. فلم أنجح إلا في بعض أبيات.. وبقي غيرها متمنعاً.

قال أبو الوليد:

وما هي هذه الأبيات؟ (وكان أبو الوليد يحب سماع الشعر من أبي مصعب)

وتنهد أبو مصعب تنهيدة عميقة عمق المحيط الهادي، وعصر جبينه، ثم نظر إلى الأفق وهو يقول:

بأيّ جناح إليكَ أطيرْ؟

ومن أيّ سَمّ يكون العبورْ؟!

وقيل انكسرت، سلمت فؤادي

قلبي، حبيبي الصغيرْ

أنا لو قدرت قطعت البحار

وجئتك حبوا بدون انتظارْ

و لكن أبوك له عذره

وقد شقّ ياابني عليه المزارْ

لماذا انكسرت؟ لما يا ولد؟

وكسّرت قلب غريب البلدْ؟!

أقلْت (أبي) حينها؟ ويلتى

لطفل على الأرض دون سندْ!!

أتَذْكُرُ كنتَ تجيئُ تقولْ:

هنا وجع والدموع تسيلْ

فألثم أين أشرتَ هنا

فتجري وبأسكَ فورا يزولْ

فكيف أُقبّل تلك القدم

وكيف أُهدهد فيها الألمْ؟

وكيف سألمسها حانيا

وأمسح فيها ازرقاق الورمْ؟

أنا الآن في البُعد شبه أسير

فمن ذا سيلثم تلك الكسورْ؟

إلى من ستشكو يقبّلها؟

لك الله يا ابني ونعم النصيرْ

فماذا سأكتب؟ ذاك يطول

ويفنى بذاك مداد السيولْ

وما من طريق إليك فعذرا

وحسبيَ ربّي ونعم الوكيلْ

في تلك الليلة كان هناك شيء متميز، ليس جديداً، لكنه لا يحدث إلا لماماً، كان هناك صمت، وتبادل لنظرات تعني الكثير... هل هو موت سالم؟!!

أم هي الرسائل التي يقرأها المجاهدون الغرباء هنا مرات ومرات؟

أهو الشوق حين يتحرك؟

ليكن كل ذلك، غير أنهم باعوا وانتهى الأمر.. سمعوا نداء العرض: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ فباعوا دفء الأُسَر، ولمسة حنان الأمهات، وأشواق الشقيقات، ودموع الآباء على كبر، وأحزان الأبناء في ليالي العيد.. وباعوا أنفسهم.

وسط الصمت رفع الشيخ مروان صوته بقوله:

جنة عرضها السموات والأرض.. ألا تستأهل هذا القطمير من الجهد والتضحية؟!.. حدثوني إذن عن بلال وعمار وسمية وخباب.. وحدثوني عن نومكم وأكلكم وشربكم بين أهاليكم وديار الإسلام تحتل، والمساجد تداس، والنساء تستغيث...

واهتز السكون بتكبيرة من أبي الوليد.. تلتها تكبيرات عدة شقّت صدر الصمت.. وابتسم أبو مصعب وهو يقول:

الحمد لله على نعمة الإسلام.



بقي الأخير وندخل المنطقة الآمنة قال محمود، وهو ينظر في المرآة الأمامية إلى حاجز الشرطة الذي اجتازوه، ثم سأل أحمد الذي كان يركب في الخلف:

أما زال الخنزير نائماً..؟

وردّ أحمد بالإيجاب.

كانت السيارة تسير بسرعة كبيرة، إذ لم يكن من الممكن إضاعة الوقت، خاصة وأن سر اختفاء نزيل الغرفة ٥٠٤ لن يدوم طويلاً.. ومد جميل الرحمن يده إلى المذياع، فضغط زراً فيه، وأدار زراً آخر: أش ش– ش، قالها الكل وهو يوجه أذنه نحو مصدر الصوت.. وزاد المذيع:

ويجري البحث الآن، رغم أنه لم يمر من الوقت ما يعد معه المعني مفقوداً.. هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشخص محل البحث، مجرد مرافق إسعاف للّجنة التي تزور بلادنا..

قال بدر:

إنهم يريدون إيهامنا أنه غير مهم، على كل المسألة فيها قولان، واستجواب المعني يرجح.

قال أحمد:

يجب أن تعلموا أننا الآن أمام مشكلة حقيقية، فالخبر أذيع، وإخفاء إنسان في سيارة أمر غير ممكن.. ولاشك أن الأمر لن يكون سهلاً في الحاجز القادم..

وسأله بدر:

وكم يبعد هذا الحاجز من هنا؟

قال محمود:

قرابة الكيلومترين

وبعدها؟ قال بدر..

بعدها سنكون في مأمن رد محمود، لكن لا تكن زبيباً قبل أن تتحصرم..

قال بدر:

هل أنوب عنك في السياقة وأتحمل مسؤوليتي؟!!

قال محمود:

الأمر ليس في سهولة شرب الماء.

قال بدر:

لا عليكم وبإذن الله سننجو..

على اليمين توقفت السيارة، ونزل منها بدر ليأخذ مكان محمود، في لحظات كهذه يحس المرء أن في رقبته أمانة أمة يجب أن يؤديها، لذلك يكون الحرص على النجاح أكبر.

كانت انطلاقة السيارة تدل على أن سائقها مغامر قديم، وله مع القيادة تاريخ.. كان صوت السديس ب— طه يتغلغل في

النفس، ويمتزج بالروح نورانياً، مريحاً.. ومد محمود يده فخلع نظارات بدر ثم مدها إلى وجه أحمد فخلع نظاراته وهو يقول:

النظارات مثيرة للريبة والفضول، لأنها تخفي شيئاً خلفها.. ورجال الشرطة لا يحبون أن يخفى عليهم شيء..

وابتسم بدر، ورفع عينيه إلى المرآة فرأى الجالسين خلفه يبتسمان، وكان الجنرال تحت تأثير المخدر لا يتحرك.

من بعيد بدا حاجز الشرطة، وتحركت الشفاه تدعو... وقرأ جميل الرحمن: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾، ولم يكن يعلم ما يدور في رأس بدر الذي خفف من سرعة السيارة وبدأ يوجهها نحو المكان الذي أشار له الشرطي بالتوقف فيه على اليمين.

كان هناك خمسة رجال من الشرطة فيما يبدو، اثنان في سيارة متوقفة جانباً، وثلاثة واقفون على الحاجز، وبحركة مذهلة سريعة صعّد بدر من سرعة السيارة، واقتحم بها الحاجز، فأردى شرطيين، وكان الثالث أسرع إلى الرصيف فتحاشى الصدمة، ومرقت السيارة مروق السهم، وكان لعجلاتها مع الأرض أصوات وأصوات.

انطلقت رصاصات من سيارة الشرطة المتوقفة... ورد عليها محمود برشاش أخرج ماسورته من خلال الزجاج، وما هي إلا دقائق حتى كانت السيارة تنعطف يميناً وتأخذ طريقاً جبلياً غير مزفت.. يبدو متعرجاً وصعباً.

كانت الألسنة لا تكف عن حمد الله تعالى.. وكان الذي يهم الشباب أكثر هو إنجاز المهمة بنجاح، وإيصال هذا الذي قيل عنه في نشرة الأخبار خبير إسعاف، وهو في الحقيقة ضابط سام في الموساد وقائد للمجموعة، إلى الذين طلبوه.

وتعالت الضحكات حين قال جميل الرحمن عن بدر:

أهذا جني؟

فرد عليه أحمد: كأنه هو..

ولعل أثر المخدر قد بدأ يخف في تلك اللحظة عن المخطوف، فبدأ يتململ كأنه يخرج من تحت ركام ثقيل، وفتح عينيه.. وذهل.. هل كان يظن أنه سيفتح عينيه على السقف الجميل للغرفة رقم ٥٠٤ مثلاً..؟!!!

برعشة وحركات تدل على الرعب استدار الجنرال يميناً ويساراً ليلقي النظرة الأولى على اللذين يجلسان إلى جانبه.. وضرب جبينه بكف يده اليسرى... لقد علم أنه وقع.. وأن الأمر لن يكون سهلاً.. خاصة وأن الشعب الفلسطيني المسلم يتعرض إلى أبشع أنواع التنكيل..

الموساد.. هذا الجهاز القذر الذي يمد أذرعه الأخطبوطية في كل مكان.. هكذا قال جميل الرحمن في نفسه، ثم توجه إلى المخطوف يسأله:

حتى هنا.. جئتم ليكون لكم موضع قدم؟ لماذا لا

تتركون حرباً ضد الإسلام والمسلمين إلا وتشعلونها ، أو تساعدون على إشعالها؟!! لماذا أيها الأوغاد ، وأنتم حفنة ، تجعلون أمة كاملة تدفع الثمن غالياً.. من دينها ، وأمنها ، وأخلاقها ، ومصيرها؟!!

كان المخطوف مطأطئ الرأس، ينظر إلى محدثه من جنب، نظرة فيها المكر والمذلة...

ومن خلف الأشجار والصخور كان الحرس المجاهدون يخرجون مسلّمين بعد أن يتأكدوا أن من في السيارة إخوانهم..

ونزل جميل الرحمن، ثم تلاه محمود يمسك بالمخطوف من يديه المقيدتين خلفه...

كان الرجوع المظفر يشيع على الوجوه مسحة من الرضى...

ومن خيمته خرج القائد عبدالرحمن وهو يقول:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



في الغرفة السوداء التي يرتسم على أرضيتها رمز المخابرات الروسية الـKJB كان الجنرال ل. ليفيتش المسؤول عن الملف الأفغاني يعلن عن إنهاء الاجتماع وهو يسلم إلى أحد الضباط بجانبه علبة مختومة، ويقول:

حسبما اتفقنا، يجب أن يستلمها قبل ١٨ ساعة وإلا ضاع كل شيء، الخطأ غير مسموح به، والتأخر خطأ.. لقد رتبنا لكل شيء.

وطأطأ الضابط رأسه وهو يستلم العلبة وقال:

بالتأكيد يا سيدي.. ستكون عنده قبل الموعد.



رنَّ الهاتف المحمول في يد القائد خطاب رنات عدة.. وتطلع إلى الرقم، فعلم أنها مكالمة خارجية، وللتو ضغط زر فتح الخط، وهو يقول:

– السلام عليكم.

كان صوت الأخ مسعود من أوروبا، كما كان دائماً جهورياً.. له رنّته المميزة:

كيف حالكم؟

الحمد لله، بنعم.

يصلك الأخ عبد الغفور، يحمل رسالة تلقيناها من عائلتكم.. يصل اليوم مساء إليكم.. انتظروه في المكان المعهود، لقد وصفته له، وسيستدل عليه.

والكلمة؟

(المثّنى يعبر..)

طيّب.. اتفقنا، سأرسل من يستقبله.

لقد كلمني من الحدود الروسية، قد يحتاج إلى خمس ساعات للوصول إليكم.

طيب.. طيب.. السلام عليكم.

وضغط خطاب الزر، وأعاد الجهاز إلى مكانه في حزامه.. وهو يقول لعبدايف:

يصلنا شخص من أوروبا في مهمة.. أرسلوا من يستقبله في جهة محطة البنزين الكبرى في غروزني.



كانت عدسة الكاميرا موجهة إلى المخطوف الإسرائيلي جالساً على الأرض، وقد قام خلفه شابان ملثمان يحملان رشاشين.. وجلس القائد عبدالرحمن قبالة المخطوف قريباً منه، وإلى جانبه أسامة، المختص في الملف الإسرائيلي - الروسي، كان الوقت مساءً، انقضت فيه صلاة العصر... وتحلق قادة المجموعة يحضرون الاستجواب... أما بقية المجاهدين فقد صُرفوا لأعمال شتى، إذ إن الإجراءات الأمنية تمنع تواجدهم.

كان المخطوف دون قيود، يفترش حصيراً، وابتدره أسامة بسؤال:

لماذا أنتم هنا؟

لا علم لي، أنا مجرد صحفي أرافق المجموعة.

قال أبو الوليد:

- وبدأ الكذب والمراوغة، لماذا لا تأخذون بنصيحة أزرق اليمامة: تخرجون لسانه وتذبحونه ذبح السلحفاة؟

ونظر إليه القائد عبدالرحمن نظرة جادة فعاد إلى صمته.

قال أسامة وهو يوجه كلامه إلى المخطوف:

- سأختصر عليك الطريق، وأقرأ جزءاً من المعلومات عنك، وتناول من أحد الحاضرين كومبيوتراً محمولاً، وراح يداعب أزراره بأنامله باقتدار مذهل، ثم قال:

– نعم هو ذا.. العميد جوزيف درعي، ٥٢ سنة، عميد في الموساد، صاحب نظرية الاستيعاب بالردع المدني المقدمة إلى وزارة الدفاع الإسرائيلية في بداية التسعينات، الأصول: من يهود الخزر، أي لست يهودياً أصلياً، مملكة أجدادك القديمة كانت قريباً من هنا، أي في القسم الجنوبي من روسيا، بين نهر الفولف، والدون، ممتدة حتى شواطئ البحر الأسود وبحر قزوين.. عشت في تشيكوسلوفاكيا قبل أن تنتقل مع عائلتك إلى إسرائيل في بداية الستينيات.. وكما أسلفت فأنت الآن عميد في الموساد. أيكفي هذا أم أزيد؟

وأغمض العميد عينيه في حنق، ثم ضرب الأرض بقبضته وهو يضغط بأسنانه ضغطاً يدل على أنه اكتشف أنه وقع فعلاً.. وأن الأفق مسدود أمامه، ورفع رأسه وهو يقول:

– هو كذلك.

– إذن أنت قائد المجموعة؟

– نعم.

– لماذا حضرتم إلى هنا؟

هناك تخطيط إسرائيلي لتوسيع دائرة الحرب والردع في المنطقة ليشمل دولاً أخرى.. بالنسبة لأمريكا لا مانع عندها، خاصة وأننا سنضرب هذه الدول بتهمة دعم الإرهاب، وهو الشعار الذي ترفعه واشنطن منذ ١١ أيلول ٢٠٠١ وتعتبر من

يحارب في ظله حليفاً لها.. بقي علينا إقناع روسيا بأمرين: غض الطرف عما سنفعله، وثانياً عدم بيع السلاح لهذه الدول التي سنستهدفها.

قال أسامة:

وبالنسبة لنا..؟ أقصد الملف الشيشاني؟

قال العميد:

– جاءت المجموعة لتقدم لروسيا هدية بسيطة، لتدلل لها على القوة الاستخباراتية الإسرائيلية.. فإذا هي قبلت العرض وأعطتنا الضوء الأخضر، ساعدناها على القضاء على المقاومة الشيشانية..

قال أسامة:

– ماذا تعني بالهدية..؟

– رأس القائد خطاب..

– خطاب؟.. كيف؟

– هناك خطة لتسميمه..

– متى؟

– أظن أنه قد فات الأوان..

– كيف..؟ كيف..؟ كيف..؟

كان أسامة ينهال بالسؤال المصيري.. كيف؟ ووّد لو أنه انهال على رأس عميد الموساد بضربات من أخمس بندقيته، فأرداه جيفة هامدة..

قال العميد:

– دعوني الآن أستريح، وبعد الراحة أخبركم..

قال عبد الرحمن:

– تستريح وأخونا في خطر؟ والله لا يغمض لك جفن حتى تقول ما عندك.. أم أنك تريد رصاصة في الفم؟ هيا تكلم.. وقام القائد عبدالرحمن، فأخرج مسدسه من حزامه..

وما كاد المترجم ينهي ترجمة ما قاله القائد عبدالرحمن، حتى كان العميد يرتجف فرقاً وهو يشير بيده إلى القائد:

– لا بأس.. لا بأس.. سأقول ما تريد.

قال أسامة:

– تكلم.

قال العميد:

– كانوا يراقبون اتصالاته الهاتفية، وجاؤوا بمقلد أصوات، وكانت الخطة أن يكلمه من أوروبا على أنه مسعود أحد أصدقائه هناك، وأخبره أنه أرسل إليه رسالة مع أحد

الشباب.. الرسالة مسمومة، وسيكون خطاب بعد ربع ساعة من لمْسها هامداً دون حراك..

قال أسامة:

متى ستسلم الرسالة..؟

قال العميد:

اختطفتموني قبل الاجتماع مع ال– *KJB*، كل شيء من توقيت وغيره من تفاصيل تنفيذ، يتوقف على ذلك الاجتماع، الخطأ خطؤكم، كان من الممكن أن تؤجلوا خطفي يومين.

وكالملسوع هبّ القائد عبد الرحمن، وهو يقول:

إليّ ببدر



كان يذرع المكان جيئة وذهاباً.. للبرد، وسآمة الانتظار.. وفاجأه شخص قريب منه، يقول:

المثنى..

المثنى يعبر.. ثم سلّم.

كان عبد الغفور في الخامسة والعشرين من عمره، تغلب على نطقه العُجمة، ويتكلم العربية بصعوبة، يُرجع ذلك وهو يعتذر إلى أنه عاش طوال حياته في أوروبا...

أما سعيد الذي جاء لاستقباله فهو في العشرين، قد يتجاوزها أو يصغر عنها بقليل.. شيشاني، عيناه زرقاوان وبشرته بيضاء..

وكان عليهما الآن أن يسيرا قرابة ساعة حتى يخرجا من منطقة الخطر، ثم يستقلا السيارة التي تنتظرهما هناك، حيث خلّفها سعيد..

كيف حال القائد خطاب؟ (قال عبد الغفور)

الحمد لله.. جيد (رد عليه سعيد)

آه لقد حلمت كثيراً بلقائه ولقاء المجاهدين، وها قد جاء الوقت المناسب، الحمد لله. قال ذلك وأخرج من حقيبته علبة كعك، أعطى منها لمرافقه قطعة فاعتذر، فأخذ هو قطعة وقضمها وهو يضيف: الكثير من الشباب المسلم في أوروبا يتشوقون إلى الجهاد هنا...

ويبدو أنه كانت لعبد الغفور شهية كبيرة للكلام، لذلك راح يسرد قصصاً بلغته المفككة ويفيض في التفصيل دون أن يكف عن قضم قطعة أخرى من الكعك.. أما سعيد فقد رحل به فكره إلى هذا الجيل الطالع من المسلمين، والذي همه نصر دين الله تعالى... في كل مكان هو، في مشارق الأرض ومغاربها، ليس في بلاد المسلمين فقط، بل في الغرب أيضاً، هذا الجيل المضحي بما يشبه الخيال.. في فلسطين وفي غيرها.. لعله في أثناء ذلك تذكر المآسي التي أصابت هذه الأمة لقرون.. ومن تلك المأساة خرج الغرّ المحجلون.. الذين تقطر مرافقهم من ماء الوضوء، وتنبت في عيونهم حقول الخير، ومن قلوبهم يعجن هذا الكوكب الأرضي أخضر آمناً، لا ظلم فيه ولا جهالة...

فلماذا يصر أعداء الإسلام على أن يأخذوا البيدر والبقرة، وأن ينعتوا الفلاح بالإرهابي إن قال لهم فقط: لا..؟

خطف عبد الغفور من ساعة يده رقمين، وقال: إنها الواحدة والربع، كم بقي من الوقت لنصل؟ فردّ سعيد: نحن على مرمى حجر من الجماعة.. لا شك أن رحلتك كانت متعبة، لا عليك سنستريح بعد وصولنا...

كان شريط الشيخ عائض القرني يدور آخر دوراته في مسجلة السيارة قبل أن ينتهي، وقال سعيد وهو يطفئ المسجلة: جزاك الله خيراً يا شيخ... ثم مال بالسيارة نحو عريش وأوقفها، ثم نزل صافقاً الباب خلفه، وهو يقول:

أهلاً بأخي، عبد الغفور.. تفضل.

وتفحص الضيف المكان من خلال الزجاج قبل أن ينزل.. ترى ما الذي يدور في رأسه هذه الساعة؟

كان المجاهدون قد أدوا صلاة الظهر بعد حصة تدريب شاقة، ووزعت عليهم مهام المساء، ثم انتشروا للراحة.. فقام بعضهم يصلي، واستند البعض إلى جذوع النخل ينظف سلاحه، أو يقرأ كتاباً، أو يكتب رسالة.. أو يتأمل.

وسلّم عليهم سعيد وهو يقول: أخونا عبد الغفور.. وأشار إليه بيده. فقال عبد الغفور: السلام عليكم.. وردوا السلام بصوت واحد.

وانطلق صوت أزرق اليمامة الذي التحق بهذه المجموعة مؤخراً، يقول:

– هل أحضرت لنا معك عطر كوبرا؟ طبعا لا.. إذن كيف تريدنا أن نجاهد دون عطر وقمصان بيار كاردان؟

وضحك سعيد ضحكة توجّس، إذ إن كلمة كوبرا التي تعني نوعاً سامّاً وخطيراً من الثعابين ارتبطت عنده بالرسالة، وكاد المريب أن يقول خذوني.. لكنه تمالك نفسه... فكيف لهؤلاء أن يعرفوا قصة الرسالة، وعملية التشويش التي قامت بها الأجهزة الروسية قد عطلت التقاط وإرسال هواتفهم منذ ٢٤ ساعة؟

كان الخوف بادياً على وجه عبد الغفور... غير أن علامات الخوف يمكن أن تشبه علامات التعب، والرحلة التي قام بها ليست قصيرة، لذلك كان تلعثمه في الكلام وقلقه له تفسير واحد عند الجماعة، وهو التعب.

قال أحدهم وهو يقدم للضيف بعض الأكل:

– تفضل، يمكنك الاستراحة بعد الغداء.

– لكنني أريد أولاً أن أقابل القائد خطاب، هناك أمر مستعجل.

قال أزرق وهو يشير إلى أحد الشباب:

– هذا اسمه محمدين.. هل رأيت في حياتك مجاهداً يريد تحرير أرض الإسلام اسمه محمدين؟ وهل هذه أمة؟ قل يا محمدين: من سماك بهذا الاسم؟

قال محمدين وهو يبتسم، ويجيب تسليماً لأزرق:

جدي هو الذي سماني.

قال أزرق: سامحه الله، هو الذي أفسد عليك مستقبلك وجعلك بدعة تمشي على الأرض.. ألم يكفه اسم محمد واحد، وهو اسم نبيك عليه الصلاة والسلام، فذهب يجمع جمع مذكر سالم محمدين؟

قالها أزرق باستهزاء وهو يمط شفتيه بها.. ثم أضاف: ماذا بعد الكمال إلا النقصان؟ ثم أين جدك الآن يا محمدين؟

قال محمدين وهو يزداد ضحكاً مع من حوله: مات.. رحمه الله.

قال أزرق: لو بقي لارتكب في حق ذريتك أشنع مما ارتكب في حقك أنت.. خذها مني يا محمدين: احذف عنك الياء والنون وتُبْ عن هذا المنكر، وإلا علقناك في الشجرة من عرقوبك وأذقناك طُعْمَ السوط أسبوعاً.

وخرج أحدهم من خيمة قريبة يتوجه نحو الضيف ويقول:

– أهلاً بك يا أخي.. جزاك الله عنا خيراً.. القائد خطاب يطلبك..

وارتعشت فرائص الضيف، ومد يده إلى حقيبته فأخرج منها مذكرة كبيرة سوداء، تأبطها وسار نحو الخيمة التي فيها القائد خطاب، وما إن دخلها حتى سلّم، واحتضن القائد بحرارة، وهو يقول:

– بلغنا عنك الكثير يا أسد.. دمت ذخراً.

وضرب القائد على ظهر ضيف وهو يقول:

– أهلاً بك...

ثم جلس وأجلسه إلى جانبه.. وفتح عبد الغفور المذكرة السوداء وسلّم القائد خطّابا رسالة، وهو يقول:

– إنها من أهلك..

وتأملها خطاب فإذا هي فعلاً بخط يد أخيه الأصغر.. ثم فض غلافها... وبدأ يجيل عينيه بين أسطرها وهو يبتسم.



كانت الساعة الثانية والنصف حين وصل بدر.. ترك باب السيارة مفتوحاً وجرى نحو المعسكر وهو ينادي:

الرسالة مسمومة يا قائد خطاب لا تلمسها.. الرسالة مسمومة، لا تعطوها للقائد.. إنها مسمومة.

وتوقف بدر عن الجري فجأة حين رأى المشهد..

كان خطاب مسجى بين أصحابه، يده اليمنى على اليسرى كأنه قائم في الصلاة، لحيته تغطي صدره وحوله ذارفو الدمع المحبين من إخوانه.. هؤلاء الذي يذكر بعضهم يوم جاءهم بركاناً من الحماس والنشاط، رائع الدعابة، خجولاً، شديداً على الأعداء.. رحيماً بإخوانه.

ترى هل أحست أمه في هذه اللحظة –ولقلب الأم إحساس خاص– أن ابنها قد خمدت أنفاسه في هذه الحياة الفانية؟

هل أحس الذين أحبوه بحبهم الجهاد من الشباب المسلم في مشارق الأرض ومغاربها أن أخاهم القائم على ثغر النار قد ترك رشاشه مكرهاً..؟

كانت اللحظات شديدة.. غريب آخر سيودع في تراب هذه الأرض البعيدة.. جاء يسعى، حاديه نبض قلبه العامر بحب الجهاد، وعطره النقع الذي تثيره فرس شوقه في الوهاد والنجود التي يقطعها..

جثا بعض إخوته على ركبهم إلى جانبه ممدّداً.. تأملوه...

لسوه... مسح أحدهم تلك اليد المقطوعة الأصابع التي طالما أقضّت مضاجع الأعداء وهي تحتضن الرشاش.. وقال:

كان قريباً من المستحيل، مدهشاً، قريباً من اللا ممكن، ثم أنشد:

لمــاذا نقــاوم فيـك الـذهولا

ولا ممكن العصر والمستحيلا؟!

ولسـنا نصـدق أنـك مـتّ

لأنـك كنـت احتمـالاً جمـيلا

مات إذن خطاب... مات الأسد الذي عرفته هذه الأرض يخط بعمره أسفار البطولة، ومتون التضحية..

مات دون أن يقول شيئاً..

قال بدر وهو يسأل أحدهم:

كيف حدث ذلك؟

سلمه الخائن الرسالة، قرأها مبتسماً، ثم لثم سطورها، رقة المسلم تلك، وهو يرى سطوراً حبرتها أيدي أناس أحبهم.. ووقعت من عينيه دمعة.. مسحها ثم قام لئلا نراه دامعاً.. خجول كما كان دائماً -رحمه الله- وخرج من باب الخيمة، اعتصره الألم، تشهد وهو على ركبتيه ينظر إلى السماء.. ثم نظر إلينا ملياً.. لم يقل شيئاً.. تأملنا واحداً واحداً.. وأسند رأسه إلى الأرض ثم مات.. رحمه الله.

●●●

أنـزل قـبره.. ورمقتـه العيـون.. لم يصـدق الـكـثيرون.. نزلـت معـه في الظلمـة بعـض مـن دمعـات إخوانـه.. كـانوا يحبونـه، لم تكـن في تلـك الـدمعات دمعـة أم أو أب أو أخـت... مـات غريبـاً.. كما عاش، فطوبى للغرباء.

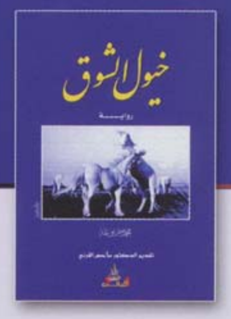
قـال الشـيخ عـوف وهـو يقطـع الصـمت الـذي خـيّم علـى الرؤوس المطرقة التي تسمرت عيونها بالقبر:

طوبى لكم.. وقد اخترتم ظهور خيـول الشـوق تطـير بكـم بين الثغور في فجاج الأرض البعيدة

فتقتُلون وتُقتلون.. طـوبى لأكفكـم المحـروقـة مـن الجمـر التي تقبضون عليه....







نفض عن جبينه حبات التراب التي التصقت به أثناء السجود، دون أن يكف عن تمرير رأس إبهامه على بواطن أصابعه مسبحاً، ورنا ببصره إلى الأفق..

كانت الآفاق المتكسرة فوق الجبال البعيدة تحرك فيه أشياء وأشياء... وهبت نسمة هواء منعشة، فأغمض عينيه وألقى بنفسه إليها وإلى أفكاره ... ومرّت في مخيلته صور سريعة، باهتة، ومتداخلة، اجتهد في تجاهلها، لكنه لم يفلح...

صورة عيني أمه، بكل حنانها، وأحزانها.. هما هما.. كما كان تأملها وهو يودعها منذ عشر سنوات... حينما اغرورقتا وقالتا كل شيء... صورة جبين أبيه... بتجعداته، وأسرار نقوش العقود...

ISBN: 6-028-54-9960

امتياز التوزيع 

الرياض - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة - هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨
فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ - ص.ب ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥
www.obeikanbookshop.com